قصّة قصيرة

عندما يأتي الوطن ماشيا على قدمين

خليل فاضل

أكلته حرارة الشمس.

تمشّى في الطرقة الفاصلة بين مدخل الدرج ونهايته طلباً لبعض النسمات التي تهبّ من البحر وتمرّ على الشّجر علّها تُلطّف من وقع الشمس على خدّيه، لكنّه راح وجاء، وجاء وراح، تفحّص كلّ السيّارات، تأمّل كلّ الناس، وكاد ضوء الشمس النافذ أن يأكل عينيه فمرّتا في دوّامة البحث المضنية كعصفورين تاها على الأغصان.

مضى إلى الداخل، ومسح العرق من على جبهته ووجهه، مسح عليهما بالماء البارد، لكن الشمس كانت قد لفحته، وأكله الهجير وتركه قلقاً منتظراً، يروح ويجيء، حتّى خاف وتطلّع بعينٍ مترقّبةٍ متوهّجةٍ إلى ما يمكن أن يحدث.

وهو في غُدُوّهِ ورُواحه، ما بين الخطوة والخطوة، وهو يكاد يدخل ويخرج، وهو على الحدّ الفاصل بين الرؤية والبحث، الاستسلام واليأس، وهو على حَدِّ السكّين يمشي في حذر، تقدّمت بخطواتها الرشيقة تدلف إلى عالمه في جرأةٍ واقتحام؛ فطفرت من عينيه الدموع، وغصّ بها حلقه، قبّل وجهها وجبينها ألف مرّة، لم يترك فيه مساحة أو مكاناً إلّا ولثمه، تمنّى أن تكون لهذا الوجه القدرة على الامتداد كما الأرض في وطنه، من الشمال إلى الجنوب، تمنّى أن يتّسع ليَسَع المدن والقرى والنجوع، تمنّى أن يتمدّد ويتورّد وتَطْلَع فيه النخلات، وتجري فيه البنات.

وبعدما شمّ رائحتها الحلوة، وتيقّنَ أنّها بكاملها لم يمسسها شرّ، بَلَعَ ريقه؛ فمسحت وجهه وقالت:

ـ لقد أكلتك حرارة الشمس.

تأمّلته من رأسه حتّى قدميه، ضَمّته كالطفل الغرير، تأمّلها من شعرها حتّى رجليها، ضمّها كالأب يحتويها بين ضلوعه، ويُخَبّئُها في صدره، ولمّا خلص حوار العشق تقدّمت إليه، أمسكت بيديه وسألته:

ـ إذن فلقد أتيت من بلادِ الفرنجةِ مباشرةً إلى بلادِ العرب.

أومأ برأسه علامةَ الإيجاب؛ فاستطردت قائلة:

ـ وهل كانت لديك نيّة للاستقرار هناك؟

هزّ رأسه علامة النفي.

ضحكت؛ فاهتزّ جسدها، واهتزّت بعض الشعرات على رأسها لتنحدر على جبهتها تُزَيِّنُها، ثمّ سألته:

ـ ولِمَ لا.. ألا تعجبك حضارة الغرب وبناته؟

ضحك وهو يتأمّلها قائلاً:

ـ لقد كُنت هناك من أجل هدفٍ فتحقّق، أخذت من حضارة الغرب ما قدرت عليه ولاءمني، وأمّا بناته فهنّ أشبه بتماثيل الزجاج.

ضحكت مرّةً أُخرى، محاولةً إخفاء إعجابها بالردّ، همهمت وهي تتدلّل كغصنٍ تأوّه تحت رحمةِ الريح سائلةً إيّاه:

ـ ألم تلحظ أنّي قد اكتسبت سمرة؟

قَبّل أناملها العشر في حركةٍ خاطفةٍ وقال بسرعة:

ـ لم أتمكّن من الاستقرار في الوطن؛ فجاء الوطن إليّ يمشي على قدمين.

أخذت عيناها شكل نفرتيتي، وكان جمال بشرتها يقارب روعة القدماء، كان جمالاً بسيطاً متمكّناً يظهر في التعابير والخلجات، يبين في القسمات، يخرج من الكلمات دافئاً مستكيناً، ويأخذ من مخزونٍ فيّاضٍ يرقد تحت الجلد.

شَمّ في رائحتها النيل والبحر الأبيض والأحمر، ورأى قناة السويس تجري مع أنهار الدموع من عينيها، ورأى البنات مهرولاتٍ إلى حجرات الدرس، ورآهنّ يجمعن القطن، سمع حوار الفلّاحين وشرب شايهم الأسود.

رفعت هامتها إلى فوق فظهرت له شامخةً كالسّد، ابتسمت فابتسم، لكن رغم كلّ شيءٍ كانت حرارة الشمس قد أكلته.

أمسكت بذراعه وقرأت صفحةَ وجهِهِ قائلةً:

ـ ألم تراودك أبداً فكرة الاستقرار في الوطن؟

صاح بسرعة:

ـ بلى.. لكني كنت أتلقّى الصدمات تباعاً.

قالت:

ـ كلّ الناس سواسية، والضغوط عليهم واحدة، وأنت... في وضعٍ أفضل نسبيّاً، عموماً الأرض لك شئت أم أبيت.

قال:

ـ هذا صحيح، لكنّ التوقيت يحتاج إلى تخطيط.

ابتسمت وقالت:

ـ والتأجيل يَمْتَدّ ويَمُدّ الأيّام لتطول، والسنوات لتصير دهراً، أنت تحتاج إلى الوطن أكثر ممّا يحتاج هو إليك.

ضحك متأمّلاً هيئتها المتمكّنة الراسخة، ووجهها ذا التقاطيع الخاصّة النافذة، تذكّر ورد النيل وعبّاد الشمس، لوْز القطن وحبّات الفول، قال:

ـ نعم لذا تحايلت على الدنيا فأتى الوطن إليّ حتّى أذهب إليه يوماً ما.

همست في أذنه وهي تستعدّ للرحيل:

ـ لا تتأخّر أبداً في العودة إلى الوطن حتّى لا تأكل حوافك الغربة، وتصبح كورق القطن يأكلك الدود.

تَفَزَّع قليلاً، تأمّلَها كثيراً، قالت وهي تنزل الدرج:

ـ تذكّر أنّك قد تخلّيت عن كثيرٍ من العادات.

قال وهو ينحني على السور المقام:

ـ لكنّي لم أَزَل أتمسّك بالتقاليد.

قالت:

ـ لا جدال ولا شكّ في ذلك، لكن أَكَلَت وجهك حرارة الشمس.

وضع كلتا يديه على خدَّيه، كان ضوء الشمس الباهر يكاد يخطف بصره، وكانت قد مَضَت، مضى عنه الوطن كما يمضي، بعدما جاءه يمشي على قدمين، كان يشتاق إليه في اللّحظة التي يتركُهُ فيها، وكان مُخَدَّراً في عمق، رأسه مليء بالأفكار، تَطَلَّع إلى الأفق فَشَمَّ رائحتَها، رائحةَ البحرِ المالح والنهرِ العَذْب والقناة التي تروي الأساطير.

الدوحة في ١٦/٦/١٩٩٢